د. جابر عصفور الأمين العام للمجلس الأعلى للثقافة:

ثقافة.. وأيديولوچيا.. وتمرد! (١)

- الإبداع هو التجسيد الحقيقى للفعل الخلاق للتمرد!
- الأديب الذى يمكن تسكينه مذهبيا هو أديب من الدرجة الثالثة!
- الفن ضد الأيديولوچيا بالطبيعة!
- اختزال المشهد الفكرى فى (العولمة) هو أمر مخل، وتكريس لفكر الهيمنة!
- لو لم توجد وزارة الثقافة لاخترعناها!!
- علامة النضج الفكرى كانت انتقالى من أننى أريد أن (أكون طه حسين) إلى أننى أريد أن (أكون غير طه حسين)، ولكن فى نفس الإطار الفكرى الأساسى!!
- مجتمعنا يشهد فوضى اللغة لا تعددية اللغة!
- التنويريون يتقدمون الآن على المتطرفين، إلى حد ليس - بالضرورة - مطلقا!!

حالة من الحيرة تنتابنى حين أوشك على تقديم د. جابر عصفور الأمين العام للمجلس الأعلى للثقافة، وأستاذ الأدب العربى، والناقد المثقف.. على عتبات حوار اقتسمنا أسئلته وأجوبته منذ سنوات فى لندن.

ومبعث هذه الحيرة، يبدأ وينتهى من أن الرجل الذى دفعت به البلد إلى صفوف التصدى الأولى، منذ سنوات، ليخوض معركة اشتعل أوارها ضد الجهل والتطرف والعصبية المقيتة، والذى عينته خفيرا حارسا على أحد المحاريب الكبرى للثقافة المصرية (المجلس الأعلى).. يصعب الإلمام بحدود الظاهرة الثقافية التى يمثلها، إذ تنتقل الدلالات والمعانى والرموز المتصلة به من مربع (الخاص) إلى مربع (العام) فى تبادليات نشطة، حتى لتكاد تستصعب وضع اليد على مقدمات مواقفه وانحيازاته، وما إذا كانت إبداعا فكريا فرديا، يصب فى خانة الموقف الفردى فحسب، أو كانت إبداعات فكرية جماعية جسورة صاغتها الأمة وصنعتها، وأودعتها قلوب وعقول كتيبة من الأبناء تدافع عن تراث البلد وتراكمه الفكرى.. وتحلم.. تحلم بالزمن الآتى، وتنطق بكلمات عبد الرحمن الشرقاوى: «وجباهنا.. يؤججها لهيب الشوق للمستقبل»!

على أيه حال، فإن الدخول إلى ساحة هذا الحوار.. هو الفعل الوحيد القادر على احتواء الحيرة وابتلاعها.

ففى هذه الساحة لن تسمع إلا كلام الرجل، صدى صوته وفكره ومنطقه، وفى حدهم - جميعا - الحد بين الجد واللعب.

وهنا نص الحوار:

● **د. جابر.. إلى أى مدى تعتبر التمرد صفة لازمة للإبداع الأدبى؟**

وكيف تحدد ترتيب الأولويات فى ساحة تمردك بين التمرد على السلطة الثقافية (متضمنة سلطة الموروث)، والتمرد على السلطة الاجتماعية (متضمنة سلطة العائلة وسلطة الجماعة)، والتمرد على سلطة المعايير النقدية (متضمنة سلطة الارتباط الأيديولوچى، أو سلطة المدرسة الفنية، أو سلطة الشلة السياسية أو الأدبيه)؟

○ الإبداع ـ بكل معانيه ـ هو التجسيد الحقيقى للفعل الخلاق للتمرد.

فما هو الإبداع فى نهاية الأمر؟

هو محاولة الإنسان أن يتمرد على مستوى الضرورة ليستبدل به الحرية، وعلى مستوى التخلف ليستبدل به التقدم، وعلى مستوى الظلم ليستبدل به العدل، وعلى مستوى الإظلام بكل معانيه ليستبدل به الاستنارة!

هذا الفعل الخلاق للتمرد ـ الذى يهدف إلى أن ينتقل بالإنسان من الضرورة إلى الحرية من الجهل إلى العلم من الإظلام إلى الاستنارة ـ هو فعل لانهائى، بمعنى ليس له سقف يتوقف عنده، وليس له مدى ينتهى إليه. وإذا توقف عند حد معين أو مدى معين أو أفق معين، انتهت بذرة الوجود الفاعل والخلاق فى الإنسان، وتحول هذا الإنسان إلى تجسيد للضرورة.

ومن دون هذا الفعل المستمر للتمرد الذى لا يتوقف عند حد، تجمد الحياة، وتتوقف فى كل مستوياتها، وفى كل دوائرها.

الدائرة الخاصة بالأسرة، وبالفرد على المستوى البيولوچى.

الدائرة الخاصة بالفعل الاجتماعى، ومدى حركة الإنسان فى محيطه الاجتماعى.

الدائرة الخاصة بالإنسان من حيث هو حيوان أو كائن سياسى، بالضرورة الأولى لا يقبل الظلم أو قيم وأشياء سلبية كثيرة.

الدائرة الخاصة بالإبداع وفيها ـ عبر مجموعة من الوسائط الفنية ـ يجسد الإنسان فعل التمرد ويشيعه بين أقرانه من بنى البشر.

ومن هنا تبرز أهمية الإبداع الذى (بالكتابة أو بوسائل الإبداع الأخرى.. أو حتى بالفكر أو الإنشاء) فالإنسان لا يجسد ـ فقط ـ فعل التمرد الخلاق، ولكن ينقله عبر وسائط ليولد فعل التمرد الخلاق نفسه فى البشر من حوله!!

تنميـط!

● **درجت الجماعة الثقافية والأدبية فى مصر على «تنميط» المبدعين، وتأكيد ضرورة أن يكونوا فقراء، أو فلاحين (لا نعرف لماذا؟)، أو على النظر لأى نص أجنبى باسترابة، وليدة نقص فى أداة إجادة اللغة، ومن ثم استسهال الإلقاء بحزمة معتبرة من الاتهامات فى اتجاهه بدءا من أنه مرتبط بفكر الغرب الاستعمارى، وانتهاء بأنه مؤامرة على الفكر القومى وعماده اللغة العربية.**

ومن هنا نلاحظ أنهم ينظرون لأى فكر متصل، حتى بالحوار، مع حضارة الغرب بانبهار سياحى، إذا جاز التعبير، وبشكل شبه متحفى، من دون النظر إلى بعض عوامله المستبطنة التى تجعل منه مكونا وطنيا أساسيا فى تيار الأدب والنقد المعاصر.. كيف ترى هؤلاء؟!

○ هذه عشرة أسئلة فى سؤال واحد (يضحك)!!

ولكن دعنا نجزئها إلى مجموعة من العناوين، ونتعرض ـ بعد ذلك ـ لأهمها.

أهمها (مسألة التصنيف) أى وضع هذا الكاتب أو ذاك المبدع فى فئة مقابل فئة أخرى، وبالمناسبة التصنيف ـ هنا ـ يبدأ من التصنيف السياسى (رجعى أو تقدمى.. يمينى أو يسارى)، أو التصنيف الدينى، كما يفعل التيار المتأسلم الآن (هذا داخل فى زمرة الإسلام، وهذا خارج عنها.. هذا مؤمن وهذا ملحد)، أو حتى بالتصنيف النقدى (كلاسيكى.. رومانتيكى.. واقعى.. رمزى... إلخ).

ولقد تعلمنا فى النقد الأدبى، وهو نفس ما نعلمه لتلامذتنا، أن الكاتب أو الناقد الذى ينطبق عليه معنى التسمية المذهبية مائة فى المائة، هو كاتب أو كاتبة

من الدرجة الثانية أو الثالثة أو الرابعة، وأن الكاتب الحقيقى أو المبدع شأنه شأن الناقد الكبير، لا تنطبق عليه الصفة المذهبية بدرجة كبيرة، إذ تجد عنده ـ دائما ـ مناطق للتمرد على الأطر الضيقة للتصنيف المذهبى نقديا، أو سياسيا، أو فنيا، أو دينيا، أو اجتماعيا.. لسبب بالغ البساطة، وهو أن الكاتب أو المبدع الكبير ينطوى على جرثومة الإبداع، وجرثومة الإبداع هى فعل مستمر من الكشف عما يظل فى حاجة إلى الكشف، والتمرد الدائم على التقاليد وعلى القواعد وعلى الأطر الثابتة، وهى ضد التصنيف بطبيعتها. ومن هنا لا يوجد مبدع كبير يمكن حشره فى مدرسة!!

فلو جئنا للرومانتيكية ـ على سبيل المثال ـ سنجد أن المبدع الرومانتيكى الكبير، وإنتاجه نفسه يرفضان أن يتقلصا فى «سرير بروكريست»، يسجنهما فى مربع بعينه، ثم تتم عمليه قصقصة الأجزاء الزائدة عن هذا المربع.

مستحيل أن تضع دستوفيسكى فى خانة بعينها.

ضعه فى الواقعية يصلح.. ضعه فى الرمزية يصلح.. ضعه ـ من حيث التفجرات العاطفية للأفراد فى الرومانتيكية تجده يصلح، لسبب بسيط،.. لأنه «فوق كل هذا»!!

وهذه القضية مطروحة فى الأدب النقدى الآن، وهناك ناقد أمريكى متميز وموهوب اسمه بول ديماند، كتب كتابا اسمه «العمى والبصيرة Blindness and insight» يشرح هذا الموضوع بطريقة ـ جد ـ مبتكرة!!

الكتاب قائم على فكرة أن الناقد الكبير يعتمد فى شغله على البصيرة، أو (الحس النقدى)، والحس النقدى ـ بطبيعته ـ عنده ـ مثل أشعة الليزر والأشعة فوق البنفسجية ـ مقدرة على أن ينفذ فى الأشياء ويخترق حجب الظلمات.

ولكن هناك فى النقد ما يسمى (دوجما النظرية)، وهى المعادل ـ فى هذا الكتاب ـ للعمى!!

ومن هنا، فإن كل ناقد عنده حالة صراع بين الحس الطبيعى، أو التبصر in-sightness (والذى يتعامل به بشكل حميم جدا وعميق ومرهف مع الإبداع

الفنى) وبين الالتزام الدوجماطيقى للنظرية، (بنيوية ـ كانت ـ أو تفكيكية أو غيرها) وهو ما نسميه ـ فى هذا السياق ـ العمى Blindness!!!

وكلما ارتفعت درجة الحدس عند الناقد، سيطرت هذه الدرجة من الحدس على تأثير الانكماش والانحشار الذى تولده قضبان الدوجما المعطلة لحركته.

وبالتالى تستطيع القدرة الحسية للناقد أن تقلل من مساحات العمى الإيديولوچى.

ويضرب مؤلف هذا الكتاب المثل بالناقد الماركسى الشهير جدا چورچى لوكاتش، (وهو يعتبر أهم ناقد فى النظرية الماركسية بصيغتها الأدبية حتى الخمسينيات)، حيث عنى كثير من النقاد المتميزين بعده فى دراسة هذه الظاهرة.

فهاهو بولدمان يقول: «إن العناصر الأصيلة التى مازلنا نحترمها فى لوكاتش، هى العناصر التى يتمرد فيها لوكاتش ـ من دون أن ينتبه ـ كناقد، على عمى الدوجما الإيديولوچية.. وأن البصيرة النقدية الموجودة فيه، هى التى جعلت منه ناقدا عظيما، وليس الانصياع إلى الدوجما».

وهذه الفكرة كررها واحد آخر من فلاسفة الفن المتميزين، وهو الناقد أرنست فيشر، وقد ترجم كتاب ممتاز لهذا الناقد بعنوان: (ضرورة الفن) إلى اللغة العربية، والذى ترجم له هو أسعد حليم.

وله ـ كذلك ـ كتاب لم يترجم إلى اللغة العربية، وليس له سمعة أو يتمتع بمعرفة كبيرة على مستوى الثقافة العربية على الأقل، واسمه: (الفن ضد الأيديولوچى.. Art against ideology).

ولأن كتاب أرنست فيشر ـ هذا ـ صدر فى وقت كنا فيه «مأدلجين» أكثر من اللازم، وساد النقد الماركسى نوع من Over Politicizing، أو التسييس الزائد عن الحد للظاهرة الأدبية، فقد كان من الطبيعى ألا يسمع أحد عنه!!

فيشر يقول: «إن الفن طبيعته تمرد»، وأنا أصيغها بعبارات من النوع الذى أحبه: «الفن فعل من أفعال المساءلة»!!

ومن ثم يصبح الفن ضد الأيديولوچيا، لأن الأيديولوچيا من خصائصها - إذا تقبلنا تعريف إنجلز لها - هى وعى زائف، والفن هو نقيض الوعى الزائف.. وما إن نضع الوعى (زائفا كان أو غير زائف) موضع المساءلة، حتى يكشف عن جوانب زيفه، وعن إمكانيات تغيره وتطوره. وبهذا ينحاز الفن لعناصره الثابتة، الباقية من الفعل الخلاق للتمرد، ويكون مع المتغير ضد الثابت..

(مع الحرية ضد الضرورة، مع الانفتاح ضد الانغلاق.. وهكذا).

....

لا يلجأ - إذن - إلى التصنيف النقدى، أو الأدبى، أو السياسى، أو الدين، إلا من ينطوى على قدر كبير من ضيق الأفق، لأن الإنسان - كإنسان - أكبر وأشمل وأعمق من أن يسجن فى دائرة ضيقة، أو فى صفة مغلقة على نحو مطلق أو بسيط أو ساذج.

ومن هنا - مثلا - عند ما نتحدث عن ثقافة الانفتاح، لابد أن نقرر أن ثقافة الانفتاح هى التى لا تعرف التصنيف المذهبى، أو الدينى، أو الاعتقادى الضيق.

وإذا نقلت هذا إلى الدين أو للتيارات الدينية أو الفكرية، ستجد أنه كلما شاعت اتجاهات النقل ولوازمها التقليدية، شاع التصنيف!!

لأن النقل هو التقبل الجامد للفكر الذى سبقك (من حيث النص.. نصا بشريا وليس نصا دينيا).. وكما يحدث فى النقد الأدبى، يحدث فى الفكر بشكل عام.

فالتصنيف - هنا - دلالة انغلاق!!

نقـل!

● اسمح لى أن نأخذ هامشا على موضوع النقل..

فأنت تبذل مجهودا جبارا فى المشروع القومى للترجمة، وترى أن الترجمة هى الطريق لنهضة مصر الفكرية والثقافية، ولكن دعنى

أناقش الجانب المعتم فى هذه القضية، فهل سيؤدى التركيز على الترجمة إلى سيادة منطق النقل، وتغلبه على منطق الإبداع أو العقل؟

○ اسمح لى ـ أولا ـ أن أحيى هذا الذكاء المكار فى السؤال!!!

وثانيا، فإن المشروع القومى للترجمة، هو أحد أضلاع مثلث، والأضلاع الثلاثة تمثل أساس الإستراتيجية التى ينبنى عليها عمل المجلس الأعلى للثقافة ـ فى تصورى ـ والعمل الثقافى بشكل عام.

١- أنت لا يمكن أن تؤسس لعمل ثقافى خلاق، من دون أن تبدأ من خصوصية الواقع الحاضر الذى تعيش فيه، منطلقا من مشكلاته، ومن أسئلته الأساسية الملحة. ويكون هذا الوعى بحركة الواقع الحى المنتسب إليه، هو البدء والمضى فى أى اتجاه.

٢- هذا الواقع الحى الذى تتعامل فيه هو ـ فى نفسه ـ مبنى على أسس تربطه بماض.. ماض مستمر ومتصل، وهو ـ نفسه ـ فيه عناصر متواصلة ومستمرة من هذا الماضى. ومن هنا فأنت لا تستطيع أن تتعامل مع هذا الواقع الحى بكفاءة فى الحاضر، إذا قطعت صلته بتراثه. ومن هنا ينبغى أن تنفتح على تراثه، وأن تعيد سؤال هذا التراث ـ بصياغات مختلفة ـ ولكن بما يدفع حركة هذا الواقع إلى الأمام وليس إلى الوراء، إلى التقدم وليس إلى التخلف، إلى المزيد من الابتكار والتمرد الإبداعى الخلاق، وليس مزيد من الإظلام.. وهذا يعنى أنك تعود إلى تراثك ـ باستمرار ـ وبين قوسين: (التراث فعل بشرى، وليس فعلا دينيا).. النصوص الدينية المقدسة (القرآن ـ الإنجيل ـ التوراة) هذه نصوص دينية، وليست مع صنع البشر، فهى خارج التراث، أى توجه التراث، على حين يبقى التراث فعلا بشريا.

فعل للإنسان من حيث هو إنسان.

التراث هو ما نرثه عن أسلافنا البشر الذين قاموا بأفعال بشرية، وهذا يعنى

ـ بالمناسبة ـ أن التراث ليس مقدسا، لأنه فعل بشرى، ومن إنجاز البشر، والبشر من حقهم أن يعيدوا النظر فيه، ويعيدوا إنشاءه، وتأليفه، وتفسيره، واختياره، والحذف منه.

فأنت تعيد صياغة هذا التراث، وتطرح عليه أسئلة الواقع المتحرك، الذى تعيش فيه من منظور هدفك الأساسى، وهو الحركة بهذا الواقع إلى الأمام، وذلك هو الضلع الثانى من المثلث.

٣- والضلع الثالث من المثلث (عندما تتأمل فى حركة الواقع الحى الذى تبدأ منه لتعود إليه) تكتشف أنه ليس منفصلا عن عالم ممتد أنت تعيش فيه ـ خصوصا ـ بعد أن أصبح العالم قرية كونية صغيرة بالفعل، بوساطة الثورة المذهلة، فى تكنولوچيا الاتصالات، فلابد ـ هنا ـ أن تدرك أنك لن تكون فعالا فى هذا الواقع، إذا أغفلت صلته بالعالم الحى من حوله وانغلقت أو انكفأت على نفسك فى إطاره.

لابد أن تنفتح على العالم من حولك وتترجم، وتدرك ـ كما أدرك المأمون فى فترة من فترات التاريخ العربى، أو كما أدرك محمد على فى فترة من فترات التاريخ المصرى ـ أن الترجمة هى بداية النهضة، ولولا (بيت الحكمة) فى عصر المأمون ما كانت الحضارة العربية قد وصلت إلى ما وصلت إليه، ولولا مدرسة الألسن التى أنشأها محمد على (ومنها خرج رفاعة الطهطاوى وتلامذته وتيارات مستمرة من المترجمين المصريين) ما كانت النهضة المصرية تحققت.

ولكن تعاملك مع العالم الآخر (مع الغرب.. أوروبا.. أمريكا.. وما حولك) لابد أن ينطلق من نقطتين:

(١) **النقطة الأولى:** هى نفس النقطة، التى تبدأ منها وتنتهى إليها، فى تعاملك مع التراث، وهى الوعى النقدى.

والوعى النقدى هو إدراك المشكلات الحقيقية فى واقعك الحى، وإدراك أسئلته الحقيقية.. وهذا الإدراك يجعلك تتعامل مع التراث من منظور نقدى، لا

تتقبله تقبل الأعمى أو المقلد، ولكن تطرح عليه أسئلتك أنت، فتضعه موضع المساءله، ولا تقدسه بحال من الأحوال، وتأخذ منه ما يدفعك إلى الأمام، وتترك منه ما يؤخرك إلى الوراء، نفس الشيء يجب أن تفعله مع هذا النتاج الذى يأتيك من الغرب.. مع أفكار ما يسمى بأفكار ما بعد الاستعمار Post co-lonial discourse، أو ما يسمى ـ الآن ـ بالنقد الثقافى.. خذ ما تشاء، ولكن ضعه موضع المساءلة من خلال إطار مرجعى، وهو الحاجة الحيوية لواقعك وحافزك كى ينطلق هذا الواقع إلى الأمام.

(٢) **والنقطة الثانية:** فى تعاملك مع هذا الآخر، مهمة جدا، إذ لابد أن تتحرر من أسر المركزية الأوروبية / الأمريكية، ولكن ـ للأسف ـ فإن الخطأ الأساسى فى مشروعات الترجمة العربية التى تمت إلى الآن، أنها كانت ـ فى الأغلب الأعم ـ محصورة فى إطار الدائرة المركزية الأوروبية / الأمريكية، بمعنى أننا مرة نركز على فرنسا، ومرة حول (اللاتين أم الساكسون) واللاتين هم الفرانكفون، والساكسون هم الأنجلوفون بلغة العصر ومعاركه.

أظن أن العالم أصبح أكبر من هذا، ولابد أن ندخل إبداع، وإنتاج العالم الثالث معنا، لابد أن ننفتح على إفريقيا، وآسيا، والهند، ونعرف اليابان والصين.

يجب أن نعرف ماذا يجرى فى هذا الكون الفسيح.

كونيـــة:

- **دعنى أطرح معك موضوعين متقاطعين مهمين، من وحى ما كنت تذكر حالا..فقبل ساعات كنت تحدثنى عن cultural critic أو الناقد الثقافى، الذى يعنى التحرك بإعمال الميزان النقدى على أرضية من المعارف المتنوعة، تعطى الخلفية كما تقدم التفسير، ولكننا ـ مرة أخرى ـ فى عالم (العولمة) الشفاف، لانتعرض**

بالأدب أو بالنقد لمجتمع واحد، يمكن الإلمام أو الإحاطة بجوانبه، وفهم مقدمات الأشياء ونتائجها فيه، وإنما ـ دائما ـ يكون المبدع، كما يكون الناقد جزءا من حالة كونية تتوه فيها التفاصيل، التى تمكن من النقد الشامل هذا. فانظر ماذا ترى؟!!

○ سأجاوب فى جزئين:

الأول خاص بالكونية.. والثانى خاص بنا نحن.

بشكل عام، أظن أن تصوير المشهد الفكرى فى العالم الآن، واختزاله فى تيار واحد هو العولمة Globalization، أو نزعة الكوكبة ـ كما يقول د. إسماعيل صبرى عبد الله وعنده مبرراته المقنعة فى هذه الترجمة ـ هو اختزال مخل، فهناك عدة معان للعولمة، فهى ـ بالمعنى الأمريكى والأوروبى المحدود تهدف إلى توحيد العالم، بمعنى تحويل العالم إلى سوق مشترك مفتوح، لا يعترف بما يسمى حدود الدولة الوطنية التقليدية، إزاء الحركة الاقتصادية والرأسمالية للشركات متعددة الجنسية، وما يلزم هذا من عمليات تغيير جذرية فى تقنيات الاتصال.

وهذا مفهوم ـ فى واقع الأمر ـ مبنى على فكرة هيمنة جديدة.. وسيطرة جديدة، ويؤكد مفهوم المركز الواحد، على عكس ما يتبادر لبعض الأذهان.. فالعولمة تتضمن مركزا من نوع جديد.. المركز الذى يصبح بمعنى المخ الذى يوجه الأوامر إلى كل التشعبات فى كل مكان فى العالم.. وهو يرسى عملية توحيد ـ على مستوى الثقافات ـ كأنه يبحث عن قاسم مشترك، يفرضه هذا المركز المهيمن، بحيث يقلل أو يصغر من شأن ما يسمى (الهويات الثقافية) فى سبيل ثقافة واحدة، يسميها ثقافة يونيفرسال أو ثقافة إنسانية، ولكنها ـ فى آخر الأمر ـ ثقافة واحدة.

هذا ـ إذن ـ مفهوم معاصر للهيمنة، وهو أكثر بريقا، وأكثر اتصالا بالتكنولوچيا، وقفازه ليس ـ فقط ـ ناعما، ولكنه براق جدا، ومغر جدا.. قفاز

الإنترنت والميكروشيبس، وانفجار المعلومات، وهذا طريق مغلف ـ جديد ـ للهيمنة السياسية والاقتصادية.

أما المفهوم الآخر للنزعة الكوكبية، والذى يواجه هذا المفهوم التقليدى الأوروبى والأمريكى، وأصبح له حضور قوى من خلال الأمم المتحدة، خصوصا على المستوى الثقافى، وهو الذى يقوم به اليونسكو حاليا.

هذا المفهوم أسميه: (التنوع البشرى الخلاق)، وأنا ـ هنا ـ أستعير عنوان التقرير الذى أصدره اليونسكو منذ حوالى ثلاث سنوات، واسمه (تنوعنا الخلاق.. Our creative diversity).

التنوع الخلاق الذى يتبناه اليونسكو ـ كرؤية جديدة وموازية لنزعة العولمة ـ هو مشروع أو رؤية إنسانية واحدة، تقوم على ما يسمى الاعتماد المتبادل، إدراكا بأن العالم أصبح فيه نوع من المشكلات لا تستطيع دولة واحدة أن تواجهها، مثل البطالة، والإرهاب، والكوارث الطبيعية، ومثل تلوث البيئة، إذ لا يمكن لبلد واحد أن يحلها، ومن ثم يجب الاعتماد المتبادل.

وتتضمن هذه الفكرة ـ أيضا ـ ضرورة احترام الهويات الثقافية المتنوعة لشعوب الأرض، ولا يمكن اختزال الهويات الثقافية فى هوية واحدة على الإطلاق.. وإنما لابد من وجود وإقرار التعددية والتنوع، بحيث تكون الثقافة الهندية موجودة، والثقافة العربية موجودة، والثقافة الإفريقية موجودة.

وكل ثقافة لها خصائصها وميراثها الروحى والإبداعى، والذى يختلف عن بقية الثقافات.. وأن العلاقة بين هذه الثقافات ـ لا ينبغى بأى حال من الأحوال ـ أن تكون علاقة هيمنة من ثقافة على أخرى، ولكن أن تكون علاقة تكافؤ وحوار متعدد الأبعاد.

مفهوم الاعتماد المتبادل ـ فى السياسة والاقتصاد ـ يؤدى إلى إلغاء التبعية بمعناها الاقتصادى والسياسى، وخلق نوع من الحوارات الجديدة بين دول الشمال ودول الجنوب.. وهو الرد العملى على تيار العولمة، بالمفهوم الذى تسعى إلى

فرضه مجموعة من الدول، ومعها شركات متعددة الجنسيات، والتى أصبحت تحكم الدول الصغيرة بالفعل.

تيار التنوع الخلاق موجود، وأتصور أن المانيفيستو الخاص به هو التقرير، الذى صدر ـ منذ ثلاث سنوات من الأمم المتحدة. ولقد قمت ـ بإحساسى بأهمية هذا التقرير ـ بترجمته ـ فورا ـ فى المجلس الأعلى للثقافة، وأسميناه: «التنوع البشرى الخلاق»، حتى يعرف المثقف العربى أنه ليس فى العالم الثانى هذا (عالم الغرب) مفهوم العولمة فقط، وإنما هناك تيار آخر موجود، مواجه لها، ومغاير، ويتصارع معها.

أما الجزء الثانى من إجابتى وهو (أين نحن؟)، فألخص وجهة نظرى حوله فى الآتى:

١- أننى أعيش وسط هذا كله، ولا يمكن أن أغلق سمعى وبصرى، عما تطرحه العولمة Globalization، وما دمت أضع منطلقاتها موضع المساءلة، فسوف أكتشف أين تكمن مناطق الهيمنة، وأين تكمن مناطق أخرى لايمكن أن تنطوى على الهيمنة، علىّ أن أفرق ـ مثلا ـ بين الهيمنة الاقتصادية المرتبطة بفكرة الشركات متعددة الجنسية التى تدمر ما يسمى بالحدود الوطنية سياسيا واقتصاديا، وبين استخدام الإنترنت.

وعندما أضع الكوكبة ـ كما يحب أن يسميها صديقنا السيد ياسين ـ موضع المساءلة، أعرف المناطق الخطرة وأواجهها، وأعرف المناطق الإيجابية وأستفيد منها، وخصوصا أنه لا توجد ظاهرة فى العالم تنطوى مائة فى المائة على الشر.. وهناك أشياء إيجابية يمكن انتزاعها من بين الأشياء السلبية.. وفى نفس الوقت، فإن علىّ بمقدار ما أواجه هذا التيار، أن أتحاور مع التيار الآخر الذى هو أقرب إلىّ وإلى مطامحى وهو تيار التنوع البشرى الخلاق.

٢- لماذا يكون تيار التنوع البشرى الخلاق أقرب إلينا؟

لأنه يحترم هويتى الثقافية الخاصة.

ولأنه يخلق إمكانات، من خلال الحوار بين الشمال والجنوب، وبين الشرق والغرب، وبين الأديان المتعددة، وبين الثقافات المتعددة.. من منظور المساواة والتكافؤ، وليس منظور الأعلى والأدنى، وهذا يعنى ـ باختصار شديد ـ أننى أعيش زمنى، بأن أبدأ من واقعى الخاص، وخصوصيتى هى مطالب اقتصاديه وسياسية واجتماعية وإبداعية، وكلها مطالب حيوية تتحول إلى أسئلة تؤرقنى ليل نهار، ولابد أن أبحث لها عن حل، وبمقدار ما أبحث لها عن حل فى تراثى، وأستفيد من خبرته الدائمة والمتواصلة، وأخلصه ـ فى نفس الوقت ـ من ترهله وجموده ـ فى بعض المناطق ـ بمقدار ما علىَّ أن أطرح هذه الأسئلة على العالم من حولى، وأعيش بطريقة متعددة الأبعاد، يعنى يكون مخى أشبه بجهاز تسجيل..

أكون على وعى بالمنجزات التى تحدث فى العالم وأنقدها!

أكون على حوار مع التجارب التى تشبهنا على امتداد العالم كله، والتى يمكن أن أستفيد منها بعيدا ـ حتى ـ عن دائرة المركزية الأوروبية/ الأمريكية.

وأصنع إنجازى الخاص فى هذه المنطقة.

ولكن هذا كله لن يتم إلا بوعيى بخصوصيتى.. وكلما ازداد وعيى بخصوصيتى، ازداد انفتاحى على العالم، وازدادت قدرتى على الإنجاز فيه.

وزارة!

● **د. جابر.. دعنى أسأل سؤالا مباغتا.. لماذا توجد وزارة ثقافة؟..**

فالموسوعة الفرنسية ـ مثلا ـ تعرف الثقافة بوصفها لفظ كلى مرادف للحضارة، يشتمل ـ فيما يشتمل ـ على العمل المهنى، والمجهود البدنى.

ومن ثم فإن وزارة الثقافة، قد تعنى ـ فى أحد مفاهيمها ـ وزارة كل الوزارات، وبالتالى دعنى أكرر السؤال: لماذا توجد وزارة للثقافة؟

○ أولا إذا لم تك وزارة الثقافة موجودة فى بلدنا، فكان ينبغى أن نطالب بها، فأنا أستطيع تلخيص وزارة الثقافة فى الجملة التالية:

«هى الوزارة المعنية بالتنمية الإبداعية لقدرات الأمة».

فكما تسعى وزارة الاقتصاد أو وزارة المال من أجل التنمية فى أبعادها الاقتصادية والصناعية، فإن البعد الذى لا يتحقق ـ بدونه ـ التقدم، والذى يبدأ منه التخلف، وإذا تخلفت فيه، تخلفت فى كل المجالات، هو القدرات أو الوعى الإبداعى للأمة، وهو ينقسم إلى قسمين:

وعى تعليمى، وهو دور وزارة التعليم. والجانب الآخر ـ وهو الذى يتجاوز دور التعليم ـ هو الثقافة، لأن الثقافة فى آخر الأمر، هى الرؤية الشاملة للحياة، على نحو يستلزم أن يزداد الإنسان إدراكا لأهمية أن ينتقل من مستوى الضرورة إلى مستوى الحرية.

فالثقافة ـ بهذا المعنى ـ تحتاج إلى وزارة، تكون مهمتها الأساسية لا تقل أهمية عن مهام أكثر أجهزة الدولة حيوية.

إن جزءا كبيرا من تخلف الأمة العربية، يبدأ من أن كثيرا من الأقطار لا تستطيع أن تفهم هذا، وأنها تتصور أنها عندما تقيم ـ من خلال مالها الوفير ـ مطارا أو مصنعا على أحدث طراز فى العالم، أنها تقدمت وهذا غير صحيح، لأن التقدم لابد أن يبدأ من الوعى الثقافى، وإذا لم يحدث تغيير جذرى فى الوعى الثقافى للأمة ـ بهذا المعنى ـ الذى يجعل الإنسان متمردا على أوضاع الضرورة، ويريد التقدم باستمرار، فلن يوجد تقدم فى الأمة مهما كان لديها من المال.

وزارة الثقافة ـ إذن ـ هى الوزارة المسئولة مسئولية أساسية عن التنمية الإبداعية لقدرات الأمة، وعن تعميق وعى أفرادها بامتدادها فى التاريخ، وحضورها فى التاريخ، وأملها فى الاندفاع إلى المستقبل.

لهذا، فإن وزارة الثقافة هى المحافظة على تراث الأمة، وهى التى تعمل على التنمية الإبداعية للأفراد، عن طريق إشاعة ما تقدمه من وسائط ثقافية متعددة، كالكتاب، والجريدة، والمنجز الثقافى المتميز على مستوى النحت والفن التشكيلى، وعلى مستوى السينما، وعلى مستوى المسرح، وعلى مستوى ابتكار وسائل ثقافية جديدة، تزيد من إيقاع وتسريع اقتراب وعى المواطن من عصره.

وتشجيع حركة الترجمة، خلق فرص للحوار الثقافى بين المواطن فى البلد، والثقافات فى العالم، لكى يدرك، أنه ليس كائنا منعزلا، ولكنه طرف مشارك للعالم وجزء منه.

وبمقدار تعميق وزارة الثقافة لخصوصية الثقافة، من خلال طرح أسئلة واقعية، والربط بين هذه الأسئلة وجذورها، فإنها تفتح وعى المواطنين على هذا كله.

وأنا أتصور أن مقياس درجة التقدم فى أى مجتمع من المجتمعات، يتحدد بمقياس فاعلية وزارة الثقافة، وإذا كانت هذه الفاعلية مشلولة، وإذا كانت وزارة الثقافة وزارة شكلية ـ بمعنى الالتهاء عن المشكلات الأساسية ودورها الحقيقى ـ فإنها تسهم فى التخلف، ولا تسهم فى التقدم.

طـــه!

- **هاجس احتل روحك مُذ كنت غلاما فى المرحلة الإعدادية، بأنك تريد أن تكون طه حسين، وتدعم هذا الهاجس بدعاء والديك أن تكون ما تريد.. أن تكون طه حسين.**

وأعرف أننى أسألك سؤالا صعبا فى إجابته، ولكن دعنا نحاول..

إلى أى مدى تشعر أن هذا الهاجس الذى احتل روحك، قد تفسر، قد تحقق؟ وما هى المحطات الرئيسية التى شعرت فيها بأن هذا الهاجس دفعك ـ مسكونا بتأثيره ـ أن تأخذ مواقف، كانت ـ بحسابات القوة المادية ـ أكبر منك؟

○ نبدأ من طه حسين.

طه حسين مسئول عن أجزاء كبيرة من هذا الكائن (جابر عصفور)، مذ أغوانى فى الصبا بقراءة (الأيام)، ودفعنى إلى الحلم بأن أكون (مثله)، وهذه هى المرحلة الأولى حتى فرغت من كتابة كتاب «المرايا المتجاورة».

لقد تخرجت من قسم اللغة العربية، وكنت الأول على جميع أقسام اللغات العربية فى الجامعات المصرية، وحصلت على الدكتوراه، وأصبحت أستاذا فى قسم اللغة العربية مثل طه حسين، وتفرغت له، ولدراسته.

ولحسن الحظ، جاء فصلنا من الجامعة أيام السادات، فرصة ذهبية، لأننى ذهبت إلى جامعة استكهولم فى السويد أستاذا، وظللت بعيدا عن مصر لفترة، وكان عملى مريح جدا، وتحققت لى هناك فكرة الشاعر: «سأطلب بعد الدار عنكم لتقربوا»، أو بيت صلاح عبد الصبور الجميل: «أجافيكم لأعرفكم».

وهنا قرأت طه حسين مرة أخرى ـ بأكمله، وكتبت (المرايا المتجاورة) وأنا خارج الجامعة وأعيش فى السويد، وهذا سر الإهداء: (إلى الجامعة التى أنتمى إليها والجامعة التى أحلم بها)!!

قرأت طه حسين ـ ليس من منظور أن أكون مثله، ولكن من منظور الابن الذى يضع أبيه موضع المساءلة، ليكون (هو/هو)، وليس الأب. ومن هنا بدأ نوع من الانفصال فى الوعى، لا ينفى الاتصال!!

طه حسين موجود فى نفسى.. وأنا موجود به، ولكن آن الأوان كى أضعه موضع المساءلة، وفى نفس الوقت أضع ذاتى فى موضع المساءلة.. ومن هنا بدأ الوعى (بالغيرية)، وأنت لا يمكن أن تستمر، ولا يمكن لإنجازك الثقافى أن يؤثر إلا إذا كنت (غير)، وكما قال شاعر آخر: «بدأوا من هناك فلنبدأ من هنا».

نتمثل إنجازات طه حسين إلى أبعد حد، ولكن ـ فى نفس الوقت ـ نضعها موضع المساءلة، وفى نفس الوقت نسأل أنفسنا، حتى نتأكد من أن أسئلتنا ليست

وعيا زائفا، إذ ليس من المهم أن تضع الأفكار والأشخاص موضع المساءلة، ولكن الأهم أن تضع نفسك ـ أنت ـ موضع المساءلة، حتى فى أثناء مساءلتك لغيرك، حتى لا يكون فعلك هو خداع للذات، أو ينتمى لآليات الدفاع الذاتى.

ومن هنا اكتمل وعيى بأننى لا يمكن أن أكون ناقدا أدبيا بشروط طه حسين، لأن العالم قد تغير.. المعرفة الأدبية تغيرت، الشرط الأدبى تغير، شروط الواقع التى نبدأ منها تغيرت.. بعض شروط طه حسين مازالت موجودة (العقلانية ـ الحرية).. القيم الأساسية، التى يدافع عنها موجودة، لاجدال فى هذا (العقلانية كقيمة ـ الحرية كقيمة ـ حلم التقدم كقيمة ـ الانتماء الإنسانى للثقافة مع الوعى بالخصوصية)، كل هذه مبادئ أساسية عنه طه حسين، إضافة إلى العدل بمعناه الثقافى والاجتماعى. فالعدل عند طه ليس اجتماعيا فقط، كما ظهر فى «المعذبون فى الأرض»، ولكنه ثقافى ـ كذلك ـ «التعليم كالماء والهواء» حق لكل إنسان.

هذه قيم أساسية ثابتة عند طه حسين، ولكن من المؤكد أن تجلياتها فى الثلاثينيات والأربعينيات ستكون مختلفة عن تجليات التسعينيات!

طه حسين كان يتكلم، والعالم ـ بالنسبة له ـ هو فرنسا بالدرجة الأولى.. أما اليوم فإن العالم ـ بالنسبة لنا ـ أكبر بكثير، إذ يوجد إلى جانب فرنسا، إنجلترا وأمريكا وألمانيا والصين واليابان.

ومن هنا بدأ الوعى ـ حتى ـ بالخصوصية داخل الانتماء إلى طه حسين، فلم أعد أحلم ـ منذ هذا الوقت ـ أن أكون (مثل) طه حسين، وإنما أن أكون (غير) طه حسين مع الإبقاء على الإطار، أو مناطق التشابه.

بوليفونية!

● اللغة كائن حى.. وأظن أنها تعرضت إلى اعتداءات شديدة القوة فى السنوات الأخيرة.. هل توافق على تعايش مستويات مختلفة

من اللغة فى وعاء الأدب المصرى، وأن أعتبر هذا التعدد، أو تلك البوليفونية الصوتية انعكاسا لوضع ديمقراطى لا يحسم القسمة اللغوية فى المجتمع بين أرستقراطية وشعبية، وإنما يجد نفسه أمام تشظى حقيقى، وتكاثر فى مستويات اللغة، ومن ثم التفكير.. ثم كيف مع كل هذه التعددية يمكننا أن نتكلم عن مفهوم واحد للخصوصية الثقافية؟

○ إذا كنت تتحدث عن بوليفونية، وعن تعددية فى اللغة، تعكس تعددية ثقافية واجتماعية موجودة فى المجتمع.. فأهلا وسهلا.

ولكن واقع الأمر الذى يحدث غير هذا، فما يحدث الآن فى ساحة اللغة العربية هو (فوضى)، ويرجع إلى ثلاثة أسباب:

١- شعور بشع بالنقص على مستوى الهوية مع قلة الثقة فى هذه الهوية والخجل منها.

٢- حالة من الجهالة ترجع إلى خلل جذرى موجود فى الأنظمة التثقيفية والتعليمية فى المجتمع.

٣- فوضى اللغة هى - بالتأكيد - بعض أشكال الفوضى الأخرى السائدة فى المجتمع.

. . . . . .

والأسباب الثلاثة - هذه - تنتج مجموعة من النتائج، كل واحدة فى مجالها، وهى المسئولة عما نراه الآن، من حالة بشعة من حالات استعمال اللغة، ربما تبدأ من البرلمان نفسه، ثم إن الإحساس بالتدنى يؤدى - باستمرار - إلى استعارة أسماء أجنبية إلى درجة هزلية ومضحكة، وهذا إن دل على شىء، فيدل على رغبة المسكين مسلوب الوعى، المغلوب على أمره، فى تقليد (غالب) هو لا يعرفه حتى. وهذا يبدأ من عناوين المحلات، إلى المنتجات، إلى الشركات.

ثم انظر إلى التظاهر بأنهم لا يجدون فى حوارهم مع الآخر الكلمة أو العبارة العربية، فيستخدمون الكلمة الإنجليزية أو الفرنسية فقط، لإيهام من يتحدثون إليه بأنهم مثقفون بهذه الثقافة، مع أن ـ واقع الأمر ـ أن الذين يفعلون هذا فى ٩٠٪ منهم، لا يعرفون لغتهم، ولا اللغة الأخرى التى يتشدقون باستخدام بعض مصطلحاتها.

وأخيرا، فهناك الجهل ـ للأسف ـ فحتى تعليم اللغة العربية تعليم متخلف، وأنا ـ شخصيا ـ أستاذ فى قسم اللغة العربية، وكنت رئيسا لقسم اللغة العربية لسنوات طويلة، وأشهد أن تعليم اللغة العربية فى مصر تعليم متخلف، لسبب بسيط، وهو أن وزارة التربية والتعليم لم تقم بالأبحاث اللازمة لتبسيط اللغة العربية.

ففى أثناء الحرب العالمية ـ مثلا ـ فى الولايات المتحدة الأمريكية، عملوا دراسات، وأحضروا علماء اللغة، وقالوا لهم ضعوا لنا برنامجا، لتعليم اللغة الإنجليزية فى ظرف ستة أشهر.. نحن لم نفعل هذا.. يجب أن نضع برامج لمحو الأمية اللغوية العربية عند الناس .. السياسى.. الموظف، بحيث نعلمها له بطريقة سهلة وميسرة.

هذا القدر من الجهالة التعليمية موجود، وخطورته أنه أصبح يُتقبل، ويؤخذ مأخذ التسليم، وكأنه شىء طبيعى مثل الشمس والهواء، وأن اللغة العربية صعبة، والناس لا تحسنها.. وانتهى الأمر.

بل إنك لو تحدثت عن تحسين اللغة العربية، يتهموك (بالفقهنة).

لدينا جهالة واعتداد بالجهالة.

أما عن الفوضى، فنحن نعيش فى مجتمعات عربية يختلط فيها الحابل بالنابل (وبالمناسبة الحابل يعنى الصياد بالحبل، والنابل يعنى الصياد بالنبل) والمعايير تهاوت، والجاهل أصبح يرى نفسه عالما، والعالم أصبح فى وضع بائس.

قيم كثيره ارتبكت، وعندما ترتبك القيم على هذا النحو ـ فإنه من الطبيعى أن ينعكس هذا الارتباك على اللغة، ولهذا ظهرت مصطلحات غريبة وجديدة، فمثلا توجد عبارة مثل (دهنا الهوا دوكو)، وهى عبارة مترجمة من الدارجة الأمريكية (We taint the city red) مثلا، وهذا ـ فى ذاته ـ توطيد لفكرة الانسحاق أمام الأجنبى.

ولكن هناك عبارات تجسد الفوضى، من اختراع المصريين أنفسهم، مثل «كمننا» مثلا، وهى التى تعكس عند الشبان نوعا من أنواع الخلل، وأنا ـ شخصيا ـ عندما أستمع لبعض هذه اللغة من الشبان، لا أستمع إليها فى سذاجة، ولكننى أرى فيها مؤشرات:

١- نوع من النقد الذاتى من الشبان للمجتمع.

٢- مظاهر تمرد لغوى على قواعد ثابتة لا تريد أن تتحرك.

٣- سخرية.

٤- تعبير عن فوضى عامة فى المجتمع.

تنويـر!

● **د. جابر.. إلى أين انتهت المعركة الفكرية بين التنويريين والمتطرفين الآن؟**

○ أظن أنها انتهت ـ إلى حد كبير ـ لصالح التنويرين.

وأنا أقول «إلى حد كبير»، وليس إلى «حد نهائى»، لأنها معركة ستظل مستمرة فى حياتنا.. ولكن المهم أى الطرفين سيصبح أكثر تأثيرا فى حركة الواقع.

التنوير أسسه بسيطة.

ـ الاحتكام إلى العقل، الذى لا يعنى إلغاء النص الدينى، كما يقول بعض سيئى الظن أو سيئى النية، لأنك عندما تقول بالاحتكام إلى العقل، فإن ذلك

لا يعنى إلغاء النص الدينى، وهؤلاء ينطوون على درجة من سوء الطوية رهيبة، لأنك عندما تدعو إلى العقل، فإن ذلك لا يتناقض مع الدين بأى حال من الأحوال!

الله كرم الإنسان بالعقل.

وهكذا يفهم كل متفقه فى شئون الدين، فانظر ـ مثلا ـ إلى الفصل الذى كتبه الإمام الغزالى ـ وهو الذى يعد فى نظر الكثيرين غير منحاز إلى المعسكر العقلانى ـ عن (العقل) ستجده فصلا مذهلا.

التنوير يعنى العقلانية والاجتهاد، وفتح باب الاجتهاد يعنى الحوار مع الآخر.. يعنى تقبل الخلاف، ويعنى ـ كذلك ـ أن العقول متساوية فى الاجتهاد، وأن الأفضل هو الأكثر اجتهادا.

ولكن المتطرفين يرون الانغلاق على دائرة محدودة من التقليد والنقل والاتباع فى أسوأ معانيها، التى أفرزت عدم الانفتاح على الآخر، وتصنيف الناس بالمعنى التكفيرى، ورفع شعار من ليس معى فهو ليس ضدى فقط، ولكنه ضد العقيدة.. وفرض الوصايا على الدين والتحدث باسم الدين.

وأظن أن تيار هؤلاء قد بدأ ينحسر، ولكننى أظن ـ كذلك ـ أنه مازال موجودا، وللأسف هذا التيار المتطرف تغذيه ـ الآن ـ بعض أجهزة إعلامنا، ومازالت تغذيه بعض أنظمتنا التعليمية بتشجيعها على التلقين، وقيامها على النقل، وعلى التقليد والمحاكاة.

مازالت أمامنا ـ بالمناسبة ـ حاجة إلى ثورة جذرية ينبغى أن نكملها فى مسألة التعليم، وفى مسألة وسائل التثقيف.

ونحن مازلنا فى حاجة إلى أضعاف ما نقوم به من جهد على مستوى الثقافة الجماهيرية، فنحن ناجحون على مستوى العامة، ولكن الثقافة الجماهيرية (من الأقصر إلى الإسكندرية) تحتاج إلى عشرات أضعاف الجهد الذى نقوم به.

. . . . . .

ثقافة الاستنارة أصبحت أكثر قوة، ولم يعد أحد ـ الآن ـ يفكر عمليا فى أن يعاود مأساة نصر حامد أبو زيد، ولم يعد أحد ـ الآن ـ يفكر عمليا فى إرسال شاب مضلل ليضع السكين فى رقبة هذا الكاتب الكبير أو ذاك.

الوضع اختلف.. والإنجاز الثقافى أصبح يترك تأثيره.

هناك قدر من التقدم، ولكنه لا يعنى نصرا أو تخلصا نهائيا من تيارات التطرف والتعصب، لسبب بسيط، أن تيارات التطرف والتعصب للأسف موجودة فى الثقافة العربية، ونحن ـ للآن ـ لم نصل بعد إلى الدرجة التى تجعلنا نضع كل مشكلات وأسئلة وقضايا الثقافة العربية، موضع المساءلة الجذرية من وجهة نظر مستنيرة تسعى ١٠٠٪ للمستقبل.

وأحد أكبر العوامل التى تعطل هذا هو التفاوت الثقافى فى درجات الانفتاح على العالم على مستوى البلاد العربية. ومن هنا سيظل الصراع مستمرا، وسيظل التطرف والتعصب موجودين إلى أن تعتدل هذه الأوضاع!!

- ١٩٩٧ -

❑ ❑ ❑